

الفن والثقافة *

نستطيع أن نقول بوجه عام إن الفن هو التعبير عن العاطفة ، وهو تعريفٌ وافيٌّ من حيث إنه لا يميل إلى مذهب من مذاهب الفن خاصة ، ولا ينجح إلى فلسفة من فلسفاته دون غيرها ؛ فأنصار الإيدياليزم الذين يرون أن الفن هو عبقرية الفنان ، المطبوعة بطابعه ، الموسومة بسيمة شخصيته ، المركزة في إلهاماته ومشاعره ، التي تسمو على الواقع سموًا كبيرًا من غير أن تتقيد به ؛ لا يحتاجون في أن العاطفة هي مثار وحيه وينبوع إلهاماته .

وأتباع الرياليزم الذين يحصرون مهمة الفن في تقليد الواقع والتقيد به ، لا ينكرون ما للعاطفة من عملٍ فذٍّ خطيرٍ في المفاضلة بين الأشياء المقلدة ، وإثثار بعضها على البعض الآخر ، وما لها من فضل في حفز الفنان إلى الإجابة والإنتقان ؛ فلا خلاف على ما للعاطفة من قيمةٍ وأثر في حياة الفن الجميل ، ولكن يوجد خلاف بين مَرَدِّهِ إلى تحديد موضوع الفن عامة : هل ينبغي له أن يبقى خالصًا لوجه الفن بريئًا عما سوى العاطفة والفطرة ؟ أم يجوز له أن يطرق عدا ذلك مواضيع العقل وفروع معرفته وأحكام فلسفته ؟

* المجلة الجديدة ، أغسطس ١٩٣٦ م .

ويتحمس فريق من الفنانين والفلاسفة للفن الخالص ، فن الفطرة والطبع ، ينزهونه عن أغراض العقل ونواذعه ، ويرثونه من نظريات الفلسفة وتأملاتها ؛ فيرون في الموسيقى مثلاً هبةً مطبوعةً في أذن الموسيقى ، تتذوق جمال الأصوات وتطمئن إلى مواقع انسجاماته ومحاسنه ، وتؤلف منها ما يفتن الأذن ، ويأخذ بمجامع النفس وينبه فيها إحساساً بديهيّاً فطريّاً من غير حاجة إلى أن يكون لهذا اللحن معنى عقلى يقصد إلى تصويره والتعبير عنه ، وهكذا . فالتصوير نتاج عبقرية تُمَيِّزُ بها عين الفنان ، تستطيع بفضل ما وُهِبَتْ أن تتحرى في الألوان جمالاً رائعاً ، باديّاً وخفيّاً ، وأن تعرضه في صورٍ شتى تسر العين وتمتع النفس وتشيع فيها البهجة والغبطة . والأدب على هذا النحو ، وَصَفُ ساذجٍ للعواطف الفطرية كالحب والألم والبغضاء واللذة ، وأما ما خلا ذلك من غايات العقل ومشكلاته فزائدٌ عن الفن الصحيح ، والإدمان عليه يفسد جوهره ويفقده رَوَاءَهُ وسموّه .

ولكى نزن هذا الرأى ونقدّره ، ينبغي أن نحدد معنى العقل بوجه عام . فنقول إنه كَمَلُكاته ، هو القوة المفكرة في الإنسان ، وأما مظاهره وآثاره فهي أشتات المعارف والعلوم ؛ فهل حقٌّ أن اشتراك هذه القوة في إبداع الفن الجميل مما يفسد جماله وروعته ؟ وهل حقٌّ أن اطلاع الفنان على آثار العقل مما يذهب بروائه ويهبط بسموه ؟

إن أراد الفنان بالاطلاع العلمى الثقافى أن يشرح - عن طريق فنه -

نظرياته ، ويُبين عن مقاصده ويكشف عن مسالكة ، فقد ضلَّ عن
غاياته وتَنكَّبَ عن طريقه . وغرضه الأول والأخير هو الشعور الصادق ،
والتعبير عن هذا الشعور تعبيراً جميلاً .

أما إنَّ أراد باطلاعه على العلم والمعرفة أن يزيد آفاقه وأن يهيئ لشعوره
مجالاً أوسع للتسامي والاستزادة ، وأراد التعبير عن هذا كله ، فهو يعمل
في حدوده ويخلص لفنه ، ويدع لنا فناً ثرياً لا نحظى بمثله عند غيره
من الفنانين الذين ينفرون من العقل والعلم ويطمنون إلى خالص الفطرة
والعاطفة .

فالفن هو التعبير عن الشعور ، والشعور يتأتى من امتزاج الوجدان
بالحياة الداخلية في النفس ، والحياة الخارجية في الطبيعة والكون ؛
فليست المسألة أن تأتي التأثيرات من الفطرة أو من الثقافة ، فكلاهما
بالنسبة للشعور سواء ، وكلُّ منهما باتصاله بجوهره يبعث فيه الحياة
والقوة والجمال ، وحقُّ إذن أن عالم العقل - الداخلى والخارجى - يفسح
المجال أمام الشعور ، ويثبت فيه حيويات جديدة ، ويمده بعناصر
طريقة ممتعة في ميدانى الطبيعة والنفس .

فالمصور تشغله مناظر الألوان في الأزهار والورود والأنهار والسموات
والوجوه ، وتتكشف له فيها عوالم من الحسن والجمال ؛ فإنَّ أضاف إلى
شعوره المتوقد إحاطةً بعلم النبات وعلم طبقات الأرض ، اتسع شعوره

بهذه الكائنات الطبيعية ، وعرف من تاريخها القديم والحديث ودقائق
أحوالها وأطوارها ما يزيده تعمقاً واتصالاً بذواتها ، ويزيدها امتزاجاً بذاته
وإثارةً لخياله وبعثاً لإحساساته .

والشاعر الذى تشرق نفسه لحب السماء وتتيه حواسه فى معارج
الأفلاك ، يزداد إشراقه نوراً وتيهه روعةً إذا طلع فى علم الفلك عن
حيوات تلك الأفلاك اللانهائية ، وتلك السُدُم التى تقصر سرعة الضوء
عن بلوغها فى ملايين السنين .

وعلى هذا النحو ينير العلم ظلمات النفس ، ويكشف عن سراديب
شخصيتها ، فيتيح للأدب فُرصاً ثمينة لكمال الأداء والتعبير ؛ ففى بادئ
الأمر لم يكن الإنسان يدرى من أمر نفسه شيئاً خلاَ الغريزة القاهرة التى
تتعهد بالمحافظة على ذاته ، وأخرى يتعهد هو بها ذريته ، وثالثة تربط
بينه وبين قبيلته . وتماشى الفن مع هذه الغرائز والعواطف يؤدى عنها
معانيها وآياتها . واستطاع الموهوبون أن يبدعوا ما هو مبدع ومُعْجَز ،
وجَدَّتْ فى تاريخ الإنسانية علومٌ جليلةُ الشأن تدرس الإنسان : تارةً من
حيث تاريخه ونشأته ، وتارةً من حيث علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه
ويتأثر به ويؤثر فيه ، وثالثةً فيما يتصل بظواهر ذاته وغرائبها ؛ فاتسع
مجال المعرفة ، وتيسرت طرق التعبير ؛ وليس ثمة شك فى أن مَنْ يُحِطُ
علماً بهذه العلوم يزداد معرفةً بشعوره وعقله وشخصيته ؛ فإذا أراد بعد
ذلك أن يعبر عن ذاته ، فهو يملك من الوسائل ويرى من الخفايا

ويطّلع على عوالم لا يدري من أمرها شيئاً ما لم يَدْرِ ما أمر هذه العلوم شيئاً ؛ فالشخصية الفطرية أفقر بدرجاتٍ كثيرة من الشخصية التي يضيء جوانبها العلم . وإنتاج الأولى مهما أوتيت من العبقرية والموهبة ، لا يمكن أن يسمو إلى إنتاج الأخرى إذا وُهبت ما وُهبتُه الأولى من الاستعداد والفطنة .

ولستُ أريد بذلك - كما قد يظهر - أن أُفْضِلَ الفن الثقافي على الفن الفطري ، كما لا يمكن أن أُفْضِلَ الفن الفطري على الفن الثقافي ! ولعل المغالاة في التفريق بينهما ليست إلا خلافاً وهمياً لا يقوى على الحق والواقع ؛ فالفن يعبر عن العاطفة ، والعاطفة تؤدي عن فطرة النفس الداخلية ، وفطرة الكون الخارجية ؛ وهذه الفطرة - في النفس والكون - تُبدى عن عوالم خفية - لا تُرى بالعين الساذجة - إذا صُوبَ إليها نور العلم .

فلا يوجد - والحال كذلك - فنُّ فطرةٍ وفنُّ ثقافة ، وإنما الفن واحدٌ من حيث وسائله ، واحدٌ من حيث موضوعه ؛ إلا أن هذا الموضوع قد يُتَوَسَّلُ إليه باستعداد الفنان الفطري ، وقد يُستعان عليه - فضلاً عن ذلك - بآثار العلم والفلسفة ؛ فلا أستطيع بعد ذلك أن أقيم وزناً لأدلة أنصار الفن الفطري ، إلا أن أسلم بأن الجهل بشيء خيرٌ من العلم به ، أو أن العمائة عن حقيقة موضوعٍ ما يزيد شعورنا به قوةً ، وتعبيرنا عنه جمالاً وروعة .

وقد يُقال في سبيل ذلك إنه لا بد للفن من ستارٍ خفيف من الغموض يكسبه جمالاً وسحرًا ، وإن العلم من شأنه معرفة الحقيقة وكشف الغموض ، فيفوّت بذلك على الفن جانبًا جوهريًا من فنتته وسحره .

وحقًّا أن العلم يجلو حقائق الأشياء ، ولكنه لا يزعم - ولا يمكن أن يزعم - أنه يبين عن كل الحقيقة ؛ ولا يزال علمنا موجةً من النور الخافت في محيطٍ لا نهائى من الظلام .

وإن وظيفة الفن أن يسمو بالنفس إلى سماوات الجمال ، وأن يلتقى بوجودان الفرد مع وجدان الجماعة الإنسانية في شعور واحد ، وأن يسلك شخصية الإنسان في وحدة عامة تضم إليها أعماق الأرض وطبقات السماء ؛ وهو لن يؤدي مهمته أكمل الأداء ما لم يُؤاخِ بين نفسه وبين العلم والفلسفة . وإنه إذا كانت الثقافة فرضٌ عينٍ على الإنسان لكي يحبى نفسه بالنور والسعادة ، فمن الحرام البين أن يُمنع الفنان من هذا النور وهذه السعادة ، وهو الذى مهمته فى الحياة أن ييثر النور والسعادة .

قرأت (١) *

نجيب الهلالى

الديموقراطية عَرَضٌ وجوهر . أما عرضها ففى الانتخاب والبرلمان ، وأما جوهرها فكفاءة الشعب التى تتمثل فى تربيته السياسية وحسن معرفته لحقوقه وواجباته ، وفهمه العام لوظيفته الاجتماعية ؛ وكل أولئك تؤهله لانتخاب نوابه انتخاباً صحيحاً ، وتوجيههم التوجيه الرشيد ، ثم مراقبتهم بعين اليقظة والنقد حتى يؤدوا أمامه الحساب مرة أخرى ؛ فالديموقراطية الحقبة تتجه بطبعها إلى تربية الشعب وتثقيفه ، بخلاف المذاهب السياسية الأخرى التى تعمل فيها الحكومات لمصلحة طبقة خاصة ، أو التى تعمل للصالح العام من وجهة نظر طبقة خاصة . فهذه الحكومات تضنّ على الشعب بنور العلم ، أو تسمح له به فى حدودٍ ضيقة ، متعللةً تارةً بنصب الميزانية ، وتارةً بالخوف من تكاثر المتعطلين ؛ والحقيقة التى تداريها أنها تخشى يقظة الشعب ، وتشفق من استنارته بالعلم لتطمئن إلى امتيازاتها فى ظل جهله وانحطاطه .

فلنفهم جيداً أن الفرقَ الحقَّ بين حكومةٍ شعبيةٍ وحكومةٍ أرستقراطيةٍ ؛

* الأيام ، ٣٠ من نوفمبر ١٩٤٣ م .

أن الأولى تعمل لخير الشعب ، فتقبل على تثقيفه في اطمئنان وثقة ورجاء ، أما الثانية فلئن عملتُ خيره ففي الحدود الضيقة التي تطمئن معها إلى ضمان رفاهيتها القائمة قبل كل شيء على استغلال الشعب .

لهذا جميعه ينبغي أن نعد نجيب الهلالى أكبر بناء للديموقراطية الحقّة في مصر . وإخاله يعرف وظيفته تمام المعرفة ، ويدرك خطورة رسالته كل الإدراك ؛ ثم إنه موهوب بالكفاءة العبقريّة التي تؤهله لتتورّ طريقه السوى وسط الأشواك والمتاعب والظلمات . ولا عَجَب ، فإنه يروم النهوض بشعبٍ كاد أن يتهالك تحت ثقل الآلاف من أعوام الظلم . . طالما ألهبت ظهره سياط المستبدين العتاة .

لقد قرأتُ تقرير الوزير عن تعليم الشعب ، فنزل على قلبى بردًا وسلامًا ، ورفعنى إلى سماءٍ مثله العليا ، وأورّى فى قلبى جذوة الحماس والفضيلة ، وأرانى على ضوئه الشعب الناهض كما يريد الوزير الخطير ، لا كما صنعتَه إرادة الظلم والطغيان . . !

قرأت (٢) *

حرية العبقرية

العبقرية قوةٌ سامية ، تتسم بالخلق والإبداع ، ولكنها لا تحيا إلا في جو الحرية المطلق . ولا يعنى هذا أنها لا تعرف القوانين ، ولكن قانونها مستمد من ذاتها .

وقد قرأتُ أخيراً كلمةً لصحافى شابٍّ وجهها إلى الأستاذ العقاد ، يريد منه أن يعدل عن الكتابة في « العبقریات » إلى ما هو أحق بعنايته في نظره ؛ ورد الأستاذ عليه فقال : الرأى الصواب المعقول في هذا الموضوع هو أن الكاتب غيرُ مطالبٍ إلا بالتوفر على إحسان الموضوع الذى يختاره . والواقع أنه من التعسف الذميم أن نطالب الكاتب بمعالجة ما نحب من الموضوعات ؛ فهو حر فيما يكتب ، والقارئ حرٌّ فيما يقرأ . إلا أن حرية الكاتب - كما قلنا - لها قانونها الذاتى ، فهو يتلقى بحواسه التيارات التى تعمل في المجتمع الذى يعيش فيه ، مظهر منها وما بطن ؛ وهو يستهدى بحواسِّ حرةٍ في اختيار موضوعاته ، فتأتى معبرةً عن واقع بيئته أو آمالها أو أحلامها البعيدة المنوط تحقيقها بالمستقبل البعيد .

* الأيام ، ٧ من ديسمبر ١٩٤٣ م .

وربَّ قارئ يسأل : هل ثمة دَوَاعٍ حقًا تستوجب تاريخ عبقریات محمد وأبى بكر وعمر وعلى في هذا الظرف من حياتنا ؟!

فأقول : إن هذه الموضوعات ليست غريبة بحالٍ عما يختلج في صدر مجتمعنا ؛ ولا أتكلم هنا عن قيمتها الدينية أو أهميتها الإنسانية ، ولكنى أشير خاصةً إلى ما يربطها « بوعى » الأمة العربية ، وقد دبت فيه يقظةٌ شاملةٌ تحوط جذورها في الماضى الغابر ، وأضاءت آملها في الأفق المحيط . ثم أنبَّه إلى ما يؤاخى بين روحها وبين بعض مظاهر نهضتنا الحديثة ؛ فأصحاب العبقریات هم الخلفاء الراشدون ، وهم الولاة الذين وجد الإسلام في عهودهم خيرَ معبّر عن روحه ؛ وأعنى بروحه تلك النزعة الشريفة نحو البساطة والمساواة ، أو ما يسمونه باشتراكية الإسلام .

والاشتراكية مذهبٌ اجتماعى حديث العهد بمصر ، ولم يهَيَّأ له بعدُ حزبٌ ينافح عن مبادئه ، ولكنه يضطرم في أفئدة كثيرٍ من الشبان . فجملة القول إن الحرية للعبقرية واجبةٌ ، وإنها تستهدى بقوانينها الخاصة ، وإنها لا تضل سبيلها . . .

مخاوف كاتب

كتب كاتبٌ في مجلة الثقافة يحذر من الأخذ بمبادئ الاشتراكية ، لأنها في رأيه لا تتحقق إلا بسفك الدماء ، ولأنها تهدد الفكر !

والواقع أن الاشتراكية أبعد ما تكون عن هاتين التهمتين ؛ فالاشتراكية تعتمد كل الاعتماد على التطور . . لا الثورة كما هو الحال في الشيوعية ؛ وكثير من زعماء الاشتراكية من المفكرين المعروفين بخدمة قضية السلام ، وليس أبعد عن ذهن الاشتراكي من التفكير في سفك الدماء .

واعتماد الاشتراكية على التطور يكفى لدحض الأوهام التي ترى فيها مُهَدِّدًا للفكر البشري ؛ فالتطور يقتضى الاعتماد على الدعاية والإقناع في حدود النظام النيابي ؛ وإذا بلغت الاشتراكية سلطانها في حدود النظام النيابي ، فلن تفكر في إلغائه ، ولن يتغير احترامها للفكر وحريته .

ونحن نُسائل هؤلاء المُتَخَوِّفِينَ : هل من تناقض بين الفكر وبين العدل الاجتماعي ؟! . . ألا يمكن أن تنتج علماً وفناً إلا في مجتمع مُشَوَّه بالفقر والجهل والمرض ؟!

ينبغي أن يُفَرَّقَ الكُتَّابُ بين ديكتاتورية الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية ؛ فالشيوعية - لتوسُّلها بالثورة - تحمى نفسها بالديكتاتورية ، ولا تسمح بالوجود إلا لحزبٍ واحدٍ ورأيٍ واحدٍ ، وتمحو ما يخالفها من الأحزاب والآراء ؛ فيرسف الفكر في دولتها بالأغلال . أما الاشتراكية فلا تعرف الثورة ولا الديكتاتورية .

obeikandi.com

للفن والتاريخ *

أم كلثوم

هى - كمغنية - خلقت فريد ، الزمان بمثله ضنين ، حنجره كامله المراتب ، وصوت رخيم عذب مرّ مقتدر ، يمتاز بمزايا الصوت النفيس مجتمعة من قوة وحنان وجلجلة وعذوبة وطول نفس ونفاذ تأثير؛ يحوط بكل أولئك هالة زاهرة من فن مبدع زاده المراس إبداعا واقتدارا ، فما زال يأتى بالساحر الفاتن . . وكلما انتهى بالقوم إلى درجة من الإعجاز يحسبون أن لا غاية وراءها ، سخر منهم بإبداعه غير المتناهى ، وأذّنهم بأن ليس للإعجاز غاية ولا نهاية .

وما من جحود مثل أن تقارن أى صوت - من الأصوات المصرية المعاصرة - بهذا الصوت المتعالى ؛ فقلّ فى غناء أسمهان وليلى ونور الهدى ما تشاء ، إلا أن تقارنه لصوت أم كلثوم فتضره من حيث أردت أن تنفعه ، وتهينه من حيث أردت أن تكترمه ، وتمرغه فى التراب وقد أردت أن تسمو به إلى السماء .

وأغانى أم كلثوم تتمتع بحياة وقوة لا تظفر بمثلها أغانى الآخرين

* الأيام ، ٢١ من ديسمبر ١٩٤٣ م .

والأخريات ، ولعل الفنانين الذين يلحّنون لها يتأثرون بحيوية روحها ونضارة صوته ، فلم تتسكب أغنية من أغانيها نهج الفن الصحيح ، سواءً في ذلك ألحان الأشجان أو الأفراح .

وهى بعدُ متربعةٌ على عرشها ، يتفتح لنا المستقبل بين يديها عن آمالٍ زاهرة ، كما انطوى الماضى على سعادات مشرقة .

زكريا أحمد

هو زعيم المدرسة القديمة دون منازع ، مع ميزة لا يشاركه فيها سواه ، وهى إجماع الموسيقيين من جميع المدارس على احترامه والإقرار له بالفن الصحيح .

وقد يختلف رأى فى الغناء ما بين قديم وحديث ، ولكنّ الهبة الصادقة لا تخفى معالمها أيّاً كان موضعها وأيّاً كان زمانها ، ولذلك انعقد الرأى فى إجماعٍ على أن زكريا أحمد فنانٌ موهوب .

ولا أقف عند هذا الحد من القول ، بل أقول إنه - بين كبار الموسيقيين المعاصرين - الوحيد الذى يستحق صفة الفنان بمعناها الدقيق . فالفن خلق وإبداع ، وكبار الموسيقيين الآن يوجهون جُلّ مجهودهم نحو الاقتباس من الموسيقى الغربية ، وهذا مجهود محمود يمثل طور الانتقال إلى الموسيقى العالمية ، ولكنه من حيث المرتبة دون الفن بمعناه الحقيقى .

ولمدرسة الاقتباس هذه زعيمان بارعان : القصبجى ، وتلميذه النابغة

محمد عبد الوهاب . زكريا أحمد غير هؤلاء . هو فنان حقاً ، ينتزع لحنه من صميم فؤاده ، ومن جوهر نفسه ؛ ربما وجدت في بعض ألحانه أصداءً لأغانٍ قديمة ، ولكنها الأصداء الطبيعية التي تنجم عن تمثيل الفنان لدراساته وإفادته منها ، ولا تطمس شخصيته بحال .

ويمتاز فن زكريا - كما امتاز فن أستاذه الكبير سيد درويش من قبل - بالبساطة التي تُطْمِعُ الطالبين في وصاها ، وتمتنع عليهم بعُصْمَةٍ لا تَلِينُ ؛ وكذلك بالواقعية المدعمة بالتعبير الصادق ، حتى لتلمس دائماً تجاوباً كاملاً في لحنه بين اللفظ ومعناه من ناحية ، وترجمته الموسيقية من ناحية أخرى . وفضلاً عن هذا وذاك ؛ فلألحانه حلوة مصرية صميمة تتفجر من أعماق نفوسنا في تآلف وتفاهم ، وكأنها تحكى بإخلاص تاريخنا النفسى بما فيه من ألوان السرور والوجد والتأمل والأمل .

والفنان لا يجوز أن يُطالب بالانتماء إلى مدرسة خاصة ، وكل ما يُرَجَى منه الإجابة والإبداع .

والفن لا يُقاس بالقدم أو الحداثة ، ولكن بالجمال الذى يخلق فوق معايير الزمن .

obeikandi.com